مناجاة مستعرب صيني من عشاق الأدب اللبناني

بقلم: السفير فريد سماحة

كنت دوماً في السابق أتبادل الأفكار مع الزميل الغالي السفير فؤاد الترك، حول مواضيع مختلفة، أدبية واجتماعية وسياسيّة، مستنيراً بآرائه. وكان اهتمامنا المتبادل ينصب على محتويات المجلة الدبلوماسية وعلى الأبحاث التي تعطي لهذه المجلة قيمة إضافية للتحاليل الدبلوماسية التي أنشئت من أجلها. كنا ندرك بأن علينا التنبّه إلى تخصيص هذه المجلة للشؤون الدبلوماسية والسياسيّة العالميّة نظراً للقرّاء الذين يعتادون على تصفّحها والتعمّق بما يكتب فيها.. الا أنني، بعد استلامي الرسالة من أديب مستعرب صيني صديق رأيت أنها تستحق النشر فتشاورت مع رئيس تحرير المجلة الحالي سعادة السفير الدكتور عاصم جابر وطغى على أفكاري التساؤل هل للأدباء والشعراء تأثير على العلاقات بين الشعوب وربما على العلاقات الدبلوماسية والسياسية بين البلدان؟

وصلتني إذاً تلك الرسالة من صديقي رئيس جمعية بحوث الأدب العربي في الصين السيد "تشونغ جي كون"، المعروف بالعربية باسم "صاعد"، مرفقة بمقال نشره في مجلة "الصين اليوم" تحت عنوان "مناجاة مستعرب صيني من عشاق الأدب اللبناني. وطلب في رسالته إطلاع اللبنانيين على المقال المذكور كي يدركوا كم هو كبير إعجاب الصينيين بالعطاء الفكري اللبناني، وكم كان مدى تأثير الندوات الأدبية التي كانت تنظمها سفارة لبنان في بكين في شعور المستعربين الصينيين نحو الأدب اللبناني. أدركت حينذاك كم كان لبنان دائماً ذلك الشاعر، ذلك المسافر عبر الذكريات والفكر، عبر الأحاسيس والعواطف، عبر النغم والصور، عبر الأعمال والأسرار، عبر الإنسانية. غنّى لنفسه وللعالم بلغته وبلغة كل العالم. لم تحمل أشرعته ولا قوافله إلى الأقاصي البرفير والأرجوان والخزف والدّمى فحسب، بل نقلت فِكَراً أو فلسفات، نقلت على الأخص أنغاماً وأغاني وصوراً وألواناً وأضواء وأطلق كل نغمة معتقلة في مطاوي الأرواح، مرشداً إلى التعبير بأناقة ولطف وقوة.

واستجابة لطلب الأديب الصيني الصديق "صاعد" رأيت أن "المجلة الدبلوماسية" هذه هي المنبر الأمثل لنقل تأثير الأدباء اللبنانيين على مشاعر المثقفين في العالم، وتجدر الإشارة الى أن المشاعر في هذه الرسالة جاءت بتعابيرها منسجمة مع عناوين عشرات مؤلفات الأدباء اللبنانيين وبأسلوب ذكيّ ينم عن امتلاك عميق للغة العربية. فيما يلي الرسالة:

مناجاة مستعرب صيني من عشاق الأدب اللبناني: "صاعد / تشونغ جي كون."

أنا معجب بالأدب اللبناني كما أنني أحب لبنان الشاعر. لا أدري أأحب الثاني بسبب الأول، أم أحب الأول بسبب الثاني، فعند السور العظيم في بكين، في بلاد التنين، أتطلع دائماً بأنظاري الى النهر الكبير، وسهل البقاع وجبل صنين، فأرى بخيالي أرز لبنان، ربة الاشجار وسيدة الجبل الجبار يصمد للثلج والنار.

فكلما كان الأدب اللبناني يجالسني ويؤانسني خيّل إليّ أني شممت النسيم العاطر الريحاني من رياض لبنان، فما تمالكت أن أردد فرحاً وسكراناً بعض أبيات حافظ ابراهيم شاعر النيل مستشهداً بشاعر غير لبناني إذ قال:

نسيم لبنان كم جادتك عاطرة

من الرياض وكم حياك منسكب

في الشرق والغرب أنفاس مسعرة

تهفو اليك، وأكباد بها لهب.

أحب الأدب اللبناني حقاً وصدقاً، إذ وجدته أفضل جليس وأجمل أنيس. فبجماله وجلاله يأخذ لبي ويجلب قلبي، يبهر عيوني ويسحر جناني.

أحب الأدب اللبناني حب روميو لجوليات، وأهيم به هيام قيس بليلى. أحبه لأنه ولد ونشأ في أسرة ذات حسب ونسب، ترجع الى العرق العريق والأصل الأصيل، ألم يكن يعتبر أجمل درة

وألمعها من درر تاج آلهة عشتروت؟ ألم يكن أجداده وآباؤه من الفينيقيين الذين كانوا يشتهرون بمهارتهم وشطارتهم في بحارتهم وتجارتهم، فكانوا أول من أعطوا الأبجدية للعالم فنشروها وعلموها في أنحاء الدنيا وانتقلوا بالحضارات الكنعانية والسامية السامية الى أوروبا وأفريقيا وسائر بلدان آسيا، فتركوا آثارهم في قرطاجة ومالطة والأندلس وغيرها. كما نرى تأثيرهم في الأدب الأغريقي والأدب الروماني وغيرهما فلم تكن أيها الأدب اللبناني أدباً متاثراً، بل كنت أيضاً أدباً مؤثراً إذ كانت الحضارات والآداب الغربية مدينة لك بما جاد به أجدادك وآباؤك من مفاخرهم ومآثرهم.

لقد ذهب الأسلاف السابقون وجاء خلفاؤهم اللاحقون، فما زلت أيها الأدب اللبناني باقياً على جمالك وكمالك، تحافظ على سنائك وبهائك، رغم تعاقب غزو البغاة وتتابع ظلم الطغاة.

لقيتك أيها الأدب اللبناني في عصرنا الحديث فعرفت كيف كنت تلعب دور الريادة والقيادة في نهضة الأدب العربي. عرفت كيف كان أبناؤك في عهد الظلم العثماني يشاركون إخوانهم في مصر عامة والأزهر خاصة في المحافظة على لغة الضاد التي أعتبرها لساني الثاني، ألم تُدخِل سنة 1610 أول مطبعة في العالم العربي، ألا وهي مطبعة دير قزحيا بشمال لبنان. ألم تُرسِل بعض أبنائك النجباء الى مصر ليشاركوا أخوانهم الأدباء هناك في إثارة الناس على الجمود وإيقاظهم من الرقود حيث رأينا "الأهرام" تأسست بيد سليم وبشارة تقلا و"الهلال" طلعت من أرض الكنانة بفضل جرجي زيدان، كما قابلنا في وادي النيل خليل مطران ذلك الأسد الباكي شاعر القطرين وزميله الشيخ نجيب الحداد وأختهم العزيزة مي زيادة التي قال عنها الشاعر شفيق المعلوف:

بنت الجبال ربيبة الهرم

فهيهات يجهل أسمها حي

لم نلق سحراً سال من قلم

ألا هتفنا: هذه مي.

أحبك أيها الأدب اللبناني، أحب أبناءك المهاجرين الى امريكا الشمالية والجنوبية حيث كونوا الرابطة القلمية والعصبة الأندلسية وأنشأوا المدرسة المهجرية التي تمتاز بالابتكار والثورة على الجمود والتقليد مبنى ومعنى. مما كون أدباً ومولداً جديداً كل الجدة يتغذى ويتمثل بكلتا الحضارتين الشرقية والغربية، حيث تتمازجان وتتزاوجان، تتقابلان، وتتكاملان فشأن دوره في تاريخ الأدب العربي الحديث شأن دور الأدب الأندلسي في تاريخ الأدب العربي القديم. كما قال الشاعر المهجري صيدح: "ان الأدب المهجري طبعت شمس الغرب ألوانها على أوراقه، أما لبّه فيحيا على اشعاع الشرق، وقلبه يختلج بنسمات الصحراء. ووجدت أولئك الأدباء المهجريين برغم أن الظروف أبعدتهم عن وطنهم فإنهم لم ينسوا مواطنيهم ولو يوماً واحداً، بل كانوا يشاطرونهم السراء والضراء، النعماء والبؤساء، يشاركونهم في غنائهم وبكائهم، في آمالهم وآلامهم، في حنينهم وأنينهم، ألم يقل ايليا أبو ماضي يخاطب وطنه العربي لبنان:

لبنان لا تعذب بنيك اذا هم

ركبوا الى العلياء كل سفين

لم يهجروك ملامة لكنهم

خلقوا لصيد اللؤلؤ المكنون

لما ولدتهم نسوراً حلقوا

لا يقنعون من العلا بالدون

والنسر لا يرضي السجون وأن تكن

ذهباً، فكيف محابس من طين

الأرض للحشرات تزحف فوقها

والجو للبازي والشاهين.

أني أحب هذه النسور والباز والعقبان والشواهين. أحب جبران خليل جبران. فكلما قرأت ما سطره خيّل إليّ أني أطوف في "حديقة النبي" مع "النبي" و"آلهة الأرض" بصحبة هذا "السابق" "التائه" "المجنون" "ينفخ من" "الأرواح المتمردة" في "عرائس المروج" ذوات "الأجنحة المتكسرة."

لا أنسى كل ما ترك لنا من "دمعة وابتسامة" و "رمل وزبد" ألم يقل: "جئت لأقول كلمة وسأقولها، واذا أرجعني الموت قبل أن ألفظها، يقولها الغد، فالغد لا يترك سراً مكنوناً في كتاب اللانهائية... جئت لأكون للكل وبالكل، والذي أفعله اليوم في وحدتي يعلنه المستقبل أمام الناس، والذي أقوله الآن بلسان واحد يقوله الآتي بألسنة عديدة! ألم يقل الرئيس الاميركي الأسبق تيودور روزفلت لجبران: "أنت أول عاصفة انطلقت من الشرق واكتسحت الغرب، ولكنها لم تحمل الى شواطئنا غير الزهور."

أحب فيلسوف الشخروب ميخائيل نعيمة، أحب أن أسايره في "دروب" أو في "البيادر" في "مهب الرياح" أو في "النور والديجور" وأستمع الى ما يناجي من "همس الجفون" وما يحكي من قصص "كان ما كان" و"أكابر" و"أبو بطة" وأتذوق معه من "كرم على درب" و"زاد المعاد."

أحب أمين الريحاني إذ كان يعرفني "بملوك العرب" و"تاريخ نجد الحديث" ويدلني هذا الرحالة الى "قلب لبنان" و "قلب العراق" حتى "المغرب الأقصى."

أحب إيليا ابو ماضي شاعر الجمال والتفاؤل والتساؤل يحكي لنا "الحكاية الأزلية" و "الطلاسم" عند "الجداول" و "الخمائل."

أحب أن أطاير فوزي المعلوف على بساط الريح حتى نصل "عبقر" شفيق معلوف.

أحب رشيد سليم الخوري الشاعر القروي أصاحبه لاقتطاف "البواكي" و"الازاهير" في "الأعاصير" في "الربيع الأخير" و"نجني" العناقيد "لعقل الجر."

أحب أن أشارك الياس فرحات في "أحلام الراعي" ونتلوا معلقة الأرز لنعمة قازان.

أحب رشيد أيوب ذلك الشاعر الباكي الشاكي فيسمعنا "أغاني الدرويش."

أحبك، أحبك، يا أيها الأدب اللبناني.

أحب أن أتمشى فأسرح أبصاري وأمتع أنظاري في حدائقك وبساتينك الغناء بألوان الأزهار والأنوار وبأنواع الأشجار والأثمار وأعير أذناً صاغية غناء الطيور وتغريد البلابل والشحرور.

أحب أن أسبح في سمائك وفضائك لأناجي ما لا يعد ولا يحصي من نجومك اللامعة، وكواكبك الساطعة.

أحب أن أغوص في أعماق بحارك الواسعة الشاسعة لأصيد بعض دررك الساحرة ولآلئك النادرة.

أحب المعلم بطرس البستاني وأبنيه سليمان البستاني وسليم البستاني فكم زهرة وشجرة غرسها هؤلاء البستانيون في "الجنة" و"الجنينة" و"الجنان."

أحب فارس الشدياق حينما كان يحدثنا ويسامرنا واضعاً الساق على الساق في ما هو الفارياق.

أحب ناصيف اليازجي إذ علمنا كيف نسبح في "البحرين" الشعر والنثر.

أحب مارون النقاش أول من عني بالمسرحية كلون أدبي في العالم العربي.

أحب بشارة الخوري الأخطل الصغير شاعر الهوى والشباب.

أحب الياس أبو شبكة يعزف بـ"القيثارة" الألحان "نداء القلب."

أحب يوسف غصوب كما أحب صلاح لبكي شاعر البوح والفوح.

أحب سعيد عقل وأدونيس.

أحب كرم ملحم كرم وما كان يقص علينا من ألف قصة وقصتين.

أحب مارون عبود يرينا ويقص علينا "وجوه وحكايات" عن "أقزام وجبابرة."

أحب توفيق يوسف عواد وأفضل ذلك "الرغيف" من "طواحين بيروت."

أحب سهيل إدريس يعلمنا كيف نكتب "بأصابعنا التي تحترق."

أحب "طيور أيلول" و "شجرة الدفلى" لاملي نصرالله.

أما اليوم فنرى نجمة جديدة كلها سناء وبهاء تطلع في سمائك وفضائك يا أيها الأدب اللبناني فقد بيضت وجه الأدب العربي كما أغنيت الأدب الفرنسي بعناصر جمالية جديدة فريدة، ألا وهي الأديب الألمعي الموهوب أمين المعلوف المعروف، الذي فاز في السنة الماضية بجائزة جونكور التي تعتبر أكبر الجوائز الأدبية في فرنسا ومن أشهرها في العالم أجمع، برائعته "صخرة طانيوس" بعد حكايات "سمرقند" و"حديقة الأنوار" و"ليون الأفريقي" وغيرها فأود أن أنتهز هذه الفرصة بإسمي وبإسم جميع زملائي وزميلاتي أخواني وأخواتي في جمعية بحوث الأدب العربي بالصين لأقدم أطيب تحياتنا وأجمل تهانينا الى أخينا المحظوظ أمين المعلوف والى الأدب اللبناني.

وكم يطيب لي أن أغتنم هذه المناسبة لأعبر عما أكنه في أعماق قلبي من حبي وحنيني وحناني نحو الأدب اللبناني، فأطلب يده وأقول له سراً وجهراً مجدداً مردداً: أحبك يا أيها الأدب اللبناني أحبك بكل فؤادي وجناني.